ترقية الخطاب الديني في وسائل الإعلام

عبد الرحمان عمار
مسؤول النشر لجريدة الأحداث

مما لا شك فيه أن وسائل الإعلام الجديدة المتمثلة في التلفزيون، الراديو، الصحف، الفضائيات وكذا الانترنت، أصبحت تؤدي دورا بارزا في عالم اليوم، من حيث تعاطيها الأخبار وتمحيصها بأشكال مختلفة، حسب الوسيلة المتلقية لها، فما يكاد بيت يخلو من وجود الجهاز المرئي (التلفزيون) وما يكاد يوجد بيت يخلو من هوائي مقعر، إنها الحاجة الملحة والتعطش الدائم والمستمر لمتابعة ما يجري حولنا من أحداث شتى، وعليه أضحى لزاما على مسؤولي هاته الأجهزة الإعلامية التعامل مع المتلقين من مشاهدين أو مستمعين أو قراء، وفق آليات احترافية، قوامها المصداقية في تقديم برامجها أو كتابة مقالتها، لإحداث التفاعل المرجو بينها وبين الجمهور، إننا اليوم نعيش عالما، أضحت فيه الرسالة الإعلامية تقاس بقدراتها على الانتشار وقاعدتها الجماهيرية، ولعل أبرز وسيلة في هذا المجال هي التلفزيون، الذي ينفرد عن الوسائل الإعلامية الأخرى بخصوصية بثه للصوت والصورة معا وهو ما يحدث تفاعلا حقيقيا لدى المشاهد فالكلمة هي لغة العقل والصورة هي لغة الحواس، من هنا نبدأ حديثنا عن ترقية الخطاب الديني، فهذه الوسيلة مطالبة بحمل الرأي العام إلى فهم أمور دينه ببساطة ودون عناء يذكر، وعليه نطرح التساؤل التالي: كيف يحافظ على الهوية الإسلامية في دائرة الإعلام المرئي وما مدى تفاعل المشاهدين مع الرسالة الموجهة؟.

وحب الارتقاء بالخطاب الديني من ظاهرة تكريس عادة التلقي لدى العامة إلى مستوى التواصل، من خلال فتح المجال أمام البرامج الحوارية والتي يتفاعل من خلالها الجمهور

المتلقي مع مرسل الرسالة أو الخطيب، فقد أثبتت الدراسات الاتصالية أن الرسالة لن تنجح في تأدية وظيفتها الاتصالية في حال اقتصادها على أحادية الجانب، ومن هنا أدحضت نظرية شانون وويفر، كونها أولت الاهتمام على حساب المتلقي، فلغة الحوار من شأنها مساعدة الخطيب في تقديم رسالته على النحو الذي رسمه، كما يدفع بالمتلقي إلى التركيز أكثر بإقحامه في العملية الاتصالية، ومن هنا يبرز نجاح البرامج الدينية التي تعتمد أسلوب الحوار.

كما أن الخطيب مطالب بعدم الاقتصار على لغة الخطاب المباشر، وذلك باستعانته بالصور المصاحبة للنص مثلا، فقد أكدت البحوث في علم النفس التحليلي على أن الإنسان شديد الارتباط بالصورة، والتي كثيراً ما تستهويه وتثير انتباهه قبل الرسالة الالسنية (أي النص)، وعليه يمكن إحداث التفاعل المرجو، بإقحام الصور، تكون بمثابة الجانب المصاحب للنص، وكخلفية يعتمدها الخطيب لتحريك الوجدان، من المستحسن أن تكون الصور في هذه الخلفية متعاقبة وتحمل ألوان الطبيعة من لون ازرق واخضر على وجه الخصوص فهي ألوان تبعث على السكون والراحة، كما يتوجب على الخطيب الظهور بمظهر البشوش الهادئ، وأن يصاحب كلامه حركات يدوية نلخصها في استعمال اليد اليمنى للإشارة، دون تخصيص السبابة في ذلك لأنها تحول الخطبة إلى أوامر ونواهي، بل تكون أصابع اليد ملتحمة وأن تكون موجهة لذات الخطيب لا إلى الملتقي، ولا تستعمل اليد اليسرى في حالات معينة عند الحديث مثلا عن التآخي بضمها لليد اليمنى، أو بسطها عند الحديث عن الرحمة والتواضع، عند الاستماع لحديث آخر عبر الهاتف مثلا يجب الاستلقاء نحو الخلف فذلك تعبير عن اللامبالاة.

من جهة أخرى وجب على الخطيب أن لا يرفع حاجبه، فهو رمز للنفاق أو عدم الصدق في الكلام، أما رفع الحاجبين معا، فإنه ينقص من الخطيب في إيصال رسالته، لأنه دليل على الاستفهام وذلك ما لا يتطابق مع الرسالة المراد إيصالها، كما ننصح بعدم الإكثار من الحركة، لأن ذلك يربك المشاهد ويدفعه لمتابعة حركات الجسم وبالتالي عدم التركيز على القول، بالإضافة إلى مصاحبة القول بالإشارة لمساعدة المتلقي، الابتسامة هي الأخرى تؤدي دورا مهما في تحديد معالم الخطاب، فإن كانت مرتسمة على الشفاه دون أن تتبعها حركة على مستوى العينين والحاجبين، فإنها اصطناعية (أي زائفة) ستحدث وقعا سلبيا على نفسية المشاهد وعليه وجب مصاحبة الكلام بابتسامة طبيعية متوسطة المدى تدخل خاصة على نفسية المشاهد في روحه الثقة وحب متابعة الحديث .

هذا عن الجانب السيموليوجي للصورة المرئية، أما عن جانب الرسالة الألسنية، فإن الخطيب يجب أن يفهم بواسطتها، بأن أسلوب الخطاب الديني يتغير من مكان لمكان ومن زمان لآخر، وعليه تجده مطالب بالفهم الدقيق لعقليات وبيئات المخاطبين، من حيث تجديد الخطاب الديني وتحديثه، بالتيسير في بسط الأمور ومخاطبة العقول والإقناع بالدليل العلمي، وانتهاج أسلوب الخطاب اللين المدعوم بالبراهين كما أنه يستوجب على الخطيب تجنب دواعي الإثارة بالاعتماد على المرونة والحوار الهادئ، مصداقا لقوله تعالى : «فبما رحمة من الله لنت لهم، ولو كنت فظا غليظ لانفضوا من حولك» سورة آل عمران

والمحبذ أيضا أن يحدث الخطيب مستمعيه بما يعلمون، فالجهد المبذول من أجل فهم فكرة غامضة، يدفع بالمتلقي إلى الاستسلام وعدم مواصلة المتابعة، وقد قال سيدنا علي رضوان الله عليه في هذا المجال : «حدثوا الناس بما يعرفون، ودعوا ما لا يعرفون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله».

إنتقاء الكلمات هو عمل مميز أيضا يجعل الحديث طيب وذو شجون، وعليه وجب استعمال من حين لأخر كلمات رقيقة لاستمالة العواطف وتحريك القلوب بالموعظة الحسنة، من حيث قوله تعالى : «ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة» ومنه المجادلة بالتي هي أحسن من حيث اللغة والمضمون والرسالة والتوجه، وهو ما وجب الاعتماد على التنوع في الخطوط والترويضات واستعمال الصور ذات الدلالة الدينية كالمساجد والقرآن ورفع اليد للدعاء وصور الأطفال والشيوخ على وجه التحديد والاختصار في الكتابة وتجنب استعمال الكلمات الخشنة، أما في المجال السمعي أي الراديو، فمن المستحب عدم رفع الصوت والإسراع في الكلمات، كما يستحسن الابتعاد قدر المستطاع عن إيراد الكلمات التي تبدأ بالحروف القوية كالراء والصاد، واستعمال ما يمت بصلة لحفيف الأوراق وخرير المياه وزرقة السماء كحروف السين والحاء مثلا.

يتعين من خلال ما أوردناه سابقا ولو بشكل مقتضب الإسهام في ترقية الخطاب الديني في وسائل الإعلام، بالاعتماد على الاختصار في الأفكار وعدم التقليل من شأن المشاهد أو المستمع أو القارئ، وترجمة القصص القرآني إلى مشاهد متحركة أو قصص مشوقة، وأن تفتح وسائل الإعلام فضاءات ومساحات خاصة للمتلقين يطرحون من خلالها انشغالاتهم وتساؤلاتهم، فالإجابة عليها من طرف الخطيب تجد لها صدى بعيد المدى في نفسيتهم.

ترقية الخطاب الديني في وسائل الإعلام، يقتضي التعامل مع النص والصورة بنفس درجة الاهتمام، فالنص يجب أن يخلو من عبارات التهجم والقذف والرؤيا الضيقة للأمور، أما الصورة فيجب أن تكون دلالات وإيحاءات بسيطة غير معقدة، وبين هذين المعمارين، نلفت الإنتباه إلى أن الإتجاه في الصحافة المكتوبة، لتأطير النصوص يعتبر خطأ فادحا، فالشريعة الإسلامية مفتوحة على العالمين وهي تتميز بالطلاقة واللامحدودية الاتساع، وهو ما يدعو إلى الابتعاد عن الحرية والتسامح اللتان تشكلان أولى قواعد الإسلام.

أما عن الخطابة كفن قائم بذاته، فالقائم بها، ملزم بأن يكون على درجة كبيرة من اليقظة والتبصر وسلاسة اللسان وطلاقته، وخير مثال نضربه في هذا المقام عن نجاح الخطبة، هو لصاحب أروع خطبة سجلت في التاريخ لجعفر بن أبي طالب ابن عم الرسول عليه الصلاة والسلام، باستعماله للغة حوار جد راقية وهو يحدث النجاشي ملك الحبشة في مجلس ضم الأساقفة والمسلمين المهاجرين.

إن التحدي الكبير الذي فرضته العولمة بمختلف أشكالها اليوم، هو دعوة صريحة ودافع حي لترقية الخطاب الديني، وحتى يتسنى له، أن يتناسب والمتطلبات التي يفرضها النظام الدولي الجديد، وعليه وجب تحديد الخطاب الديني وتحديثه، فإنه من غير الممكن غلق باب الحداثة والتطور، إذ يتعين علينا الإحاطة بوسائل التقنية الحديثة واستعمال الحكمة فهي ضالة المؤمن أينما وجدها فهو أحق بها، ومن هنا يتعين على وسائل الإعلام بمختلف أشكالها الحمل على عاتقها مسؤولية ترقية الخطاب الديني ولن يأتي ذلك إلى إذا انسجمت التقنية مع الرسالة الإعلامية.